مجلة الدراسات الإسلامية - جامعة كابل
Journal of Islamic Studies - Kabul University
رقم تسجيل المجلة: RCTD GIJR - 0015-25 الرقم الدولي: e-ISSN: 3078-6355

JIS Journal Of Islamic Studies Kabul University e-ISSN:3078-6355

https://doi.org/10.62810/jis.v2i4.331

تجديد المنهج في قراءة السيرة النبوية قراءة سياسية: أعلام ونماذج وقيم مستفادة

الباحث:

الدكتور سعيد امختاري، وزارة التربية الوطنية، المغرب العربي

البريد الالكتروني: saidamakhtari77@gmail.com

تاريخ المادة:

تاريخ الإرسال: (١٤ شوال ١٤٤٧)

تاريخ الإصلاح: (٢٥ شوال ١٤٤٧)

تاريخ القبول: (١ ذو الحجة ١٤٤٧)

تاريخ النشر: (٢٨ ذو الحجة ١٤٤٧)

الملخص: تتجلى أهمية هذا البحث في كونه مختصا بمنهج جديد ابتكره العلماء عبر السنين في دراسة السيرة النبوية، فلقد كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم أعظم شخصية عرفها التاريخ البشري، ولذلك اهتم العلماء والمؤرخون والباحثون بسيرته اهتماما لم يحصل لأي شخصية أخرى نظرا للمكانة العظمى التي حظي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد عمل العلماء منذ وقت مبكر جداً على تدوين سيرته، واختلفت في ذلك مناهجهم وطرقهم، وكان كل عصر يظهر فيه ما يدل على الذهاب نحو تجديد التأليف في السيرة النبوية، فمنهم من ركز على الدروس والعبر والقيم، ومنهم من ركز على موضوعات أخرى، ونحن في هذا المقال يهمنا أولئك الذين قصدوا بيان الصبغة السياسية لتصرفات النبي صلى الله عليه وسلم في سيرته، ويركز هذا البحث أيضاً على إشكالية أن بعض الحداثيين وغيرهم يعتقدون أن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم كانت دعوة روحية لا شأن لها بتدبير شؤون الحكم والقضاء والحرب والسلم والعلاقات الدولية، فسلكت المنهج التحليلي، ثم المنهج الوصفي من أجل أن يحقق هذا البحث أهدافا أهمها: بيان أهمية السياسة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأنه لا يمكن الفصل بين السياسة ودعوته عليه الصلاة والسلام، ثم بيان الأسلوب الجديد المبتكر في دراسة السيرة النبوية خاصة من الناحية السياسية، وبيان أشهر الأعلام في هذا المجال، إضافة إلى لإشارة إلى نوع طريف ولطيف ومفيد من التصانيف التي صنفت في السيرة النبوية، والذي كان من أبرز أعلامه العلامة الدكتور محمد حميد الله، وتوصلت إلى نتيجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع في رسالته بين الدعوة والسياسة، وكان نبياً ورسولاً وحاكماً لدولة.

الكلمات المفتاحية: تجديد، دولة الإسلامية، سيرة النبوية، سياسية؛ قيم.

Renewing the Approach to Reading the Prophet's Biography: A Political Reading – Figures, Models, and Lessons Learned

ABSTRACT: The importance of this research lies in its focus on a new methodology developed by scholars over the years in the study of the Prophet's biography. The Prophet Muhammad (peace and blessings be upon him) was the greatest figure in human history, and therefore, scholars, historians, and researchers have devoted unprecedented attention to his life, given his exalted status. Scholars began documenting his biography very early on, employing diverse methodologies and approaches. Each era witnessed a renewed focus on writing about the Prophet's life, with some concentrating on lessons, morals, and values, while others focused on different themes. This article is concerned with those who sought to highlight the political dimension of the Prophet's actions. This research also addresses the misconception held by some modernists and others that the Prophet's life was solely a spiritual calling, unrelated to governance, justice, war, peace, and international relations. Therefore, this research employs both an analytical and a descriptive approach to achieve its primary objectives, namely: demonstrating the significance of politics in the Prophet's life. Peace and blessings be upon him, and that it is not possible to separate politics from his call, peace and blessings be upon him, then explaining the new innovative method in studying the Prophet's biography, especially from the political aspect, and explaining the most famous figures in this field, in addition to pointing to a nice, pleasant and useful type of classifications that were classified in the Prophet's biography, and one of its most prominent figures was the scholar Dr. Muhammad Hamidullah, and I came to the conclusion that the Messenger of God, peace and blessings be upon him, combined in his message the call and politics, and he was a prophet, a messenger and a ruler of a state.

Keywords: The biography of the Prophet, May God bless him and grant him peace, Renewal, Islamic state, Politics, values.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على النبي الأمي الصادق الأمين، ورحمة الله للعالمين، محمد بن عبد الله، الذي أدى الأمانة حق الأداء وبلغ الرسالة حق التبليغ، فاللهم صل وسلم عليه صلاة طيبة مباركة دائمة، وعلى آله الأطهار، وصحابته الأخيار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فسيرة محمد صلى الله عليه وسلم وارفة الظلال أصلها ثابت وفرعها في السماء، يجد فيها مل دارس بغيته، كيف لا وهي سيرة نبي تتسم شريعته بالشمولية والبيان العملي لكل شيء ذكر في القرآن الكريم، ولإنه من شمولية شريعة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وشمولية سيرته أن كان المجال السياسي حاضرا بقوة في سيرته صلى الله عليه وسلم وهو عين ما سنتناوله في هذا البحث.

مشكلة البحث:

تسعى هذه الورقة إلى الإجابة عن الإشكالية الآتية:

– هل يمكن الحديث عن التجديد في السيرة النبوية؟

ويفرع عن هذه الإشكالية الأسئلة الفرعية التالية:

– هل صنف العلماء مصنفات في تجديد دراسة السيرة النبوية؟

– ما هي أهم المصنفات والمؤلفات التي اشتهرت في تجديد دراسة السيرة النبوية؟

– هل يمكن الحديث عن القراءة السياسية باعتبارها منهجا جديدا في تجديد دراسة السيرة النبوية؟

أهداف البحث:

ولبيان وجه من وجوه التجديد في دراسة السيرة النبوية، سنحاول أن نحقق بعض الأهداف كما يلي:

– بيان أهمية السياسة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأنه لا يمكن الفصل بين السياسة ودعوته عليه الصلاة والسلام.

– بيان الأسلوب الجديد المبتكر في دراسة السيرة النبوية خاصة من الناحية السياسية، وبيان أشهر الأعلام في هذا المجال.

– الإشارة إلى نوع طريف ولطيف ومفيد من التصانيف التي صنفت في السيرة النبوية.

أهمية البحث:

يأتي هذا البحث لأجل بيان شمولية السيرة النبوية، باعتبارها التطبيق العملي لشمولية القرآن الكريم، إذ إن بعض الباحثين ينظرون إلى دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم باعتبارها دعوة روحية تربوية لا علاقة لها بالسياسة والحكم والتدبير، وهذا البحث يحاول الرد على تلك النظرة الناقصة إلى السيرة النبوية من خلال رؤية تجديدية في الدراسة والتصنيف، وبيان كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يمارس شؤون السياسة الداخلية والخارجية وأن ذلك من مميزاته صلى الله عليه وسلم بعد كونه نبيا ورسولا من الله تعالى.

أسئلة البحث:

– هل يمكن الحديث عن التجديد في السيرة النبوية؟

وإذا كان هذا السؤال إشكالية مركزية في هذا البحث، فلا شك لن نتوصل إلى حلها إلا بأسئلة فرعية كالآتي:

_ هل صنف العلماء مصنفات في تجديد دراسة السيرة النبوية؟

– ما هي أهم المصنفات والمؤلفات التي اشتهرت في تجديد دراسة السيرة النبوية؟

– هل يمكن الحديث عن القراءة السياسية باعتبارها منهجا جديدا في تجديد دراسة السيرة النبوية؟

الدراسات السابقة:

حاولت البحث عن مقالات منشورة في مجلات بحيث تعالج القراءة السياسية باعتبارها منهجا تجديديا في السيرة النبوية، لكنني – حسب جهدي المتواضع– لم أجد ما يماثل ورقتي هذه، أما الكتب المصنفة في هذا المجال فمتعددة يمكن التمثل ببعضها كالآتي:

– مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، لمحمد حميد الله، نشرته دار النفائس في طبعات منها الطبعة السادسة، بيروت سنة: ١٤٠٧ هـ.

– نبي الإسلام سيرته وآثاره، لمحمد حميد الله، نشره منتدى العلاقات العربية والدولية، قطر، الطبعة الأولى: ٢٠٢٤م.

– العلاقات الدولية في الإسلام، لمحمد حميد الله، طبع طبعة أولى بمركز نهوض للدراسات والبحوث، بيروت، ٢٠٢٢م.

– قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد رواس، قلعه جي، الطبعة الأولى، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٦م.

– الربيع الأول؛ قراءة سياسية واستراتيجية في السيرة النبوية، لوضاح خنفر، جسور للترجمة والنشر، سنة: ٢٠٢٠.

وهناك دراسات أخرى كثيرة، وقد أفدت منها في إعداد هذه الورقة.

المنهج المتبع في البحث:

اتبعت في هذا البحث منهجين اثنين، أولهما المنهج الوصفي، بحيث قمت بوصف المادة العلمية من خلال ما تيسر لي من مصنفات ومؤلفات تهتم بالقراءة السياسية للسيرة النبوية، وثانيهما المنهج التحليلي: بحيث قمت بتحليل المادة العلمية التي حصلتها من تلك المؤلفات وبيان كيف يمكن اعتمادها للدلالة على التجديد في فهم السيرة النبوية.

خطة البحث:

مقدمة: حول منهج القراءة السياسية لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

المبحث الأول: صحيفة المدينة والمراحل الأولى لتطور الدولة الإسلامية.

المبحث الثاني: السياسة أسلوب من أساليب التبليغ في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثالث: أعلام القراءة السياسية لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

المبحث الرابع: بعض القيم المستفادة من الدراسة السياسية لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

خاتمة.

المبحث الأول: صحيفة المدينة والمراحل الأولى لتطور الدولة الإسلامية:

نالت صحيفة المدينة اهتمام كل الباحثين الذين درسوا السياسة الشرعية في الإسلام، سواء كانوا من المثبتين لهذه السياسة في الإسلام، أم من النافين لوجودها، غير أننا نجد من الباحثين من يتحدث عن نشأة الفكر السياسي في الإسلام حتى قبل كتابة صحيفة المدينة، ف "حسين الحاج حسن "يرى أن عام الهجرة، ٦٢٢ هـ، هو أول نشأة الفكر السياسي في الإسلام، بحيث: "يمكن اعتبار هذا التاريخ، هو تاريخ نشأة الدولة الإسلامية الأولى، إذ اكتملت فيه العناصر الضرورية للدولة، من سلطة سياسية متمثلة بزعامة الرسول صلى الله عليه وسلم، وشعب مؤلف من الأوس والخزرج والمهاجرين واليهود، وإقليم محدد بحدود يثرب، وبقيت على الرسول مهمات صعبة يتحتم عليه إنجازها في أول حكمه للمدينة، كان أهمها: تدعيم أواصر الوحدة بين طوائف شعب المدينة، وتقوية مركزه من حيث هو رئيس الدولة الأعلى الذي يجمع بيده كل السلطات"[١].

وفي مقابل هذا الرأي نجد خالد بن صالح الحميدي يذكر أن الإرهاصات الأولى للفكر السياسي والدولة الإسلامية كانت بدايتها من الهجرة إلى الحبشة، وقال "إنه أول عمل سياسي، لأن قريشا ردت عليه بأن أرسلت للنجاشي ملك الحبشة، وفدا من رجلين ليطالبا باسترداد المهاجرين..."[٢].

١ حسين، الحاج حسن، ١٩٨٧، النظم الإسلامية، ط: ٢، القاهرة: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص: ٢٨-٢٩.

٢ الحميدي، صالح بن خالد، ١٩٩٤، نشوء الفكر السياسي الإسلامي من خلال صحيفة المدينة، ط: ١، بيروت: دار الفكر اللبناني، ص: ٤٦.

وعلى العموم فإن التدقيق في تاريخ محدد لنشأة الفكر السياسي والدولة الإسلامية، قد لا يسعف الباحثين، خاصة عند من يعدون دين الإسلام ديناً شاملاً متكاملاً، لا يمكن فيه الفصل بين الديني والسياسي، وذلك لكون بعض العلماء يتحدثون عن الشريعة بمفهومها الموسع الشامل، ويرون أنها تعني كل حياة الإنسان المادية والمعنوية، دون تضييقها في مفاهيم معينة[١].

ودون أن نخرج عن موضوعنا هذا نعود إلى صالح بن خالد الحميدي الذي تتبع الإرهاصات الأولى لنشأة الدولة الإسلامية، ثم الخطوة العملية الكبيرة التي ثبتت أمر الدولة الإسلامية بصورة أكثر تنظيما ودقة وقوة، وأكثر وضوحا في الرؤية: "فالصحيفة كانت المصدر الأول للرؤية الفكرية التي سادت الدولة الإسلامية في السنوات الأولى لتكونها؛ فهي ليست بدعة منظر سياسي، بل جذورها تضرب في أعراف العرب فيما قبل الإسلام، وتنشئ مجتمعا مفتوحا يتناسب والمتطلبات العالمية للدعوة الجديدة. وبالتالي فإن أي تقييم لدولة الإسلام، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار المفاهيم السياسية التي هيمنت في الصحيفة"[٢].

وبهذا فعلا تكون الوثيقة مصدراً ثالثاً لتطور السياسة الشرعية وقوانينها وقواعدها في الحضارة الإسلامية، وهو كما يبدو للباحثين مصدر متعلق بالسيرة النبوية، يشهد بذلك كثير من المفكرين، منهم نور الدين مختار الخادمي الذي يقول: "إن وضع الوثيقة قد مثل مستوى ثالثا من مرجعية الشرع في المجال السياسي والدستوري، حيث مثل المستوى الأول القرآن الكريم، ومثل المستوى الثاني السنة الشريفة، ومثل المستوى الثالث الوثيقة ذاتها، وهو ما يدل على أن المستويات الثلاثة مثلت الإطار الأكبر في المجال السياسي، وفي العمل الدستوري، وكان بالإمكان الاقتصار على القرآن والسنة، ودون أن يعمل الرسول صلى الله عليه وسلم على وضع هذه الوثيقة انطلاقا من الوحي وتفاعلا مع الواقع وتقديرا للمصالح ومراعاة للممكن والمتاح، فوضع الوثيقة دلالة رمزية وموضوعية وشكلية وإجرائية على الأداء الدستوري والتنظيمي للواقع السياسي والحياة العامة..."[٣].

ورغم الملامح الاستقلالية للوثيقة من الناحية السياسية الدستورية، إلا أنها في نهاية المطاف تعتبر من ضمن السنة النبوية، لأنه من صنعه صلى الله عليه وسلم، وكذلك من سيرته، في المدينة النبوية، والدليل على ذلك قول الدكتور نور الدين مختار الخادمي: "إن الوثيقة قد صدرت من شخص الرسول عليه الصلاة والسلام، وهي بهذا تعد عملا سنيا على غرار مجموع السنن الصادرة عنه، ولكنها نوع من أنواع العمل السني على غرار الأنواع السنية المعروفة، كالنوع المتعلق بالأفعال، والنوع المتعلق بالتقريرات، وكذلك على غرار الأنواع المتعلقة بتصرفاته عليه الصلاة والسلام، وهي تصرفه بمقتضى الإمامة...فالوثيقة جاءت ثمرة لتصرفه بالإمامة والسياسة فضلا عن تصرفه بالتبليغ والتشريع، وهو ما كان مبنياً على التقدير السياسي والنظر المصلحي والمنهج الاجتهادي في إدارة الدولة وإقامة

---

١ من العلماء الذين ينظرون إلى الشريعة الإسلامية نظرة موسعة لا تتجزأ إلى دين ودولة: الراغب الأصفهاني من القدماء، والدكتور أحمد الريسوني من المعاصرين، وكذلك الدكتور طه عبد الرحمن، انظر على سبيل المثال: فقه الثورة للدكتور الريسوني، وروح الدين، للدكتور طه عبد الرحمن.

٢ صالح بن خالد الحميدي، المرجع السابق، ص: ١٥.

٣الخادمي، نور الدين بن مختار، ٢٠١٦م، المقاصد الشرعية في المجال السياسي والدستوري، ط: ١، القاهرة: دار السلام، الطبعة الأولى. ص: ٢٣– ٢٤.

مصالحها ومصالح مواطنيها، وإذا تقرر هذا النوع السني، فإنه يتقرر معه المستوى السياسي والدستوري في ضوء النصوص والمقاصد بمنهج النظر والاجتهاد، على غرار ما فعله الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم. كما أن الجانب الشكلي والإجرائي للوثيقة قد مثل ضربا من ضروب أو صورة من صور نوع التصرف بالإمامة أو السياسة للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو ما يجعله عملا بارزاً مستمداً من السنة النبوية ودالاً على إمكان إفراده بالبيان والاهتمام، وعدم الاقتصار على تضمينه ضمن السنة بإطلاق وإجمال"[١].

من هنا إذن استمدت السياسة الشرعية في الإسلام تطورها المذهل، وصارت فرعا من فروع الفقه والمعرفة، كثيرا ما احتفت بها كتب الفقه، وعلم الكلام، بل وكتب التفسير وشروح الأحاديث، ناهيك عن الكتب المتخصصة، التي سميت على الجملة: كتب الأحكام السلطانية، وقد تعددت مناهج التصنيف فيها واختلفت من فقيه لآخر، وفي الحقيقة يعتبر هذا التطور في التصنيف السياسي امتدادا للمنهج النبوي، وصورة من صور الاقتداء، إذا ليس الاقتداء به صلى الله عليه وسلم مقتصرا الإتيان بالواجبات والفرائض والسنن ومكارم الأخلاق، رغم أصالتها، ولكن الاقتداء على الحقيقة يكون أكثر شمولية وحضارية، يقول الدكتور نور الدين مختار الخادمي: "إذا تم إقرار كون وضع الوثيقة الدستورية بالمدينة عملا سنيا أو صورة من صور التصرف السياسي السني أو النبوي، فإنه يتقرر معه حكمه المتعلق بتحقيق الامتثال والاقتداء، بناء على التكليف باتباع النبي صلى الله عليه وسلم والاستنان بسنته وفقا لتفاصيل ذلك وضوابطه وأدواته، وحكم الاقتداء هنا هو متعلق بمبدأ التوثيق والتدوين، أي بمبدأ وضع الدستور وتنظيم المجتمع، وإقامة الدولة وإدارة الحياة العامة، كما يتعلق حكم الاقتداء باعتماد النصوص والأصول الجامعة للحكم العادل والدولة الرائدة والحقوق القائمة، وبالاستناد إلى قواعد الاجتهاد والتقدير والمنطق والمقاربات والاختيارات، وعليه فإن الصناعة الدستورية الإسلامية بمفهومها المرجعي وإمكانياتها المتاحة وسياقاتها المختلفة، تعد نوعاً من أنواع الاقتداء بمنهجه عليه الصلاة والسلام، وضربا مهما من ضروب التعويل على السنة فضلا عن القرآن في تحويل الشرع ومطلقاته إلى واقع مشهود بمنجزاته ومتقناته، مع ملاحظة التفاوت في ذلك مقدارا وإعمارا، بتفاوت الفهوم والمبلغ من العلوم والابتلاء بالهموم والتضرع لطرد شقاوة المعاش وعذاب السموم"[٢].

بعد الوثيقة، أو صحيفة المدينة التي صاغها النبي صلى الله عليه وسلم، لا بد من الاعتداد بتصرفاته صلى الله عليه وسلم بالإمامة، فتجمع كلها وتدون وتدرس على ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية ليتبين بعد ذلك أن هذه التصرفات بمقتضي الإمامة تمثل "ضروب المفردة النصية من جهة تعلقها بالسنة الفعلية والتقريرية التي قام بها النبي صلى الله عليه وسلم، والتي تدل على تأديته للسياسة وإدارة الدولة والقيام بأعمالها على نحو تقرير الصلح وإرسال السفراء والاتصال بالملوك..."[٣].

١المرجع السابق، ص: ٢٥-٢٦.

٢المرجع السابق، ص: ٢٦-٢٧.

٣نفسه، ص: ٢٨، ويقول الخادمي في هامش نفس الصفحة: "من المهم غاية الأهمية النظر في تلك التصرفات واستخراج أبعادها المقاصدية واستدعاؤها في الراهن المعاصر، قصد تحقيق الفوائد والمصالح، وتحقيق مبدأ الاستنان والاقتداء".

المبحث الثاني: السياسة أسلوب من أساليب التبليغ في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم:

المطلب الأول: اتخاذ الكتاب لأجل التبليغ:

حتى لا نهمل الأسلوب الإداري القائم على مؤسسات الدولة بحسب التطور الاجتماعي الحاصل في الدول، فإننا نستنتج من فعل النبي صلى الله عليه وسلم في اتخاذ الكتاب عددا من الدروس والعبر منها:

– الحرص على تكوين دولة بمؤسساتها، ثم الحرص على ضبط الدعوة، وتبليغها مشافهة وكتابة، ولذلك لا نستغرب أن يتخذ النبي صلى الله عليه وسلم كتابا جمعهم وترجمهم الدكتور محمد مصطفى الأعظمي رحمه الله في كتاب لطيف وجميل بعنوان: كتاب النبي صلى الله عليه وسلم، قال في ذلك الأعظمي: "وبما أن كتابة الرسائل تدل على التنظيم الإداري للدولة الإسلامية الفتية، لذلك أحببت أن ألقي بعض الأضواء على هذا الجانب من نشاط النبي صلى الله عليه وسلم"[١].

والكتاب "فيه تفاصيل مفيدة لديوان الإنشاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلغ عنده عدد الذين كتبوا للنبي عليه السلام واحدا وستين، ولكن مع اختصاصات: فبعضهم كان يشتغل بالمسائل العسكرية مثل تدوين أسماء المتطوّعين للغزوات والسرايا، وتسجيل المغانم وتقسيمها، وآخرون يكتبون إلى الملوك أو يشتغلون بكتابة المعاملات، وآخرون بالزكاة والصدقات، إلى غير ذلك، ولا يبقى أدنى شبهة أن النبي عليه السلام كان قد أسّس ديوان الجيش، وكان يعطي المعاش للجنود حتى يكونوا دائما على أهبة للخروج في البعوث"[٢].

المطلب الثاني: كتابة الرسائل السياسية إلى الملوك والزعماء والولاة وغيرهم:

بعد اتخاذ النبي صلى الله عليه وسلم لعدد من الكتاب في دولته، جعل عليه الصلاة والسلام يكتب الرسائل إلى أهل الحكم والزعامة في جزيرة العرب وخارجها، وكانت هذه الرسائل معبرة عن أمور كثيرة منها أن النبي صلى الله عليه وسلم جعلها أسلوبا من أساليب الدعوة إلى الله تناسب طبقة من الناس، هي طبقة علية القوم وسراتهم وسادتهم، كما تعبر أيضا بطريقة أخرى عن حقيقة المجتمع المدني الذي أنشاه النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مجتمع اتخذ صبغة دولة ناشئة ذات أركان متكاملة بحسب سياق ذلك الزمان، ولها إمامها الأعظم الذي هو النبي صلى الله عليه وسلم، إضافة إلى كونه بالأساس رسول الله إلى العالمين، يقول.....: "وقد حرص صلى الله عليه وسلم كل الحرص على دخول الناس في دين الله، فما ترك وسيلة يبلغ بها رسالة ربه عز وجل إلى القريب والبعيد

١ الأعظمي، محمد مصطفى، ١٩٧٨، كتاب النبي صلى الله عليه وسلم، ط: ٢، بيروت: المكتب الإسلامي، ص: ٦.

٢ حميد الله، محمد، سنة: ١٤٠٧ هـ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط: ٦، بيروت: دار النفائس، ص: ١.

إلا سلكها، وكانت رسائله إلى الملوك والأمراء والعظماء في عصره هي الانطلاقة الأولى للعبور بالدين الإسلامي من جزيرة العرب إلى آفاق العالم المعروفة آنذاك"[١].

المبحث الثالث: أعلام القراءة السياسية لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم:

المطلب الأول: كتب التراتيب الإدارية والنظم الإسلامية قراءة جديدة للسيرة النبوية

إن أول فائدة نجدها في كتب التراتيب الإدارية على العهد النبوي، أننا بواسطتها نحاول إثبات وجود دولة إسلامية على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، والرد على من ينفي وجود الدولة أو فكرة الدولة في الإسلام.

ونحن نعلم ما كتب من كتب نظرية في وجوب إقامة الدولة ونصب الإمام وما إلى ذلك مما يحفظ المصالح، ولكن كتب التراتيب الإدارية والنظم الإسلامية، تصف لنا وصفاً دقيقاً ما كان عليه أمر حكومة النبي صلى الله عليه وسلم، تلك الحكومة التي كانت واقعاً عملياً لا ينكره إلا مكابر أو غامط للحق، وأفضل ما نجده مصنفاً في هذا المجال، كتابان جليلان لعالمين كبيرين من علماء المغرب الأقصى والأندلس، أحدهما من المتقدمين وثانيهما من المتأخرين، وكلاهما من علماء المالكية، وقد أنتج كل واحد منهما كتاباً فذاً يصف ما كان عليه النظام الإداري على عهد النبي صلى الله عليه وسلم بكل تفاصيله، مع ما قد يكون سبباً في تأليف كل واحد منهما لكتابه.

أولا: تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية:

الخزاعي هو علي بن محمد بن أحمد بن موسى بن سعود الخزاعي– ويكنى أبا الحسن وأحيانا أبا السعود– من أسرة أندلسية عرفت بالفقه والعلم، ولد في تلمسان سنة: ٧١٠هـ، وتوفي سنة: ٧٨٩هـ، وقد ألف كتابه "تخريج الدلالات السمعية" ردا على من يحتقر الانخراط في الولايات والعمالات، مبينا أن هذا قد كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه هديه عليه السلام وهدي صحابته رضوان الله عليهم جميعا، قال في مقدمة كتابه: "لما رأيت كثيرا ممن لم ترسخ في المعارف قدمه، وليس لديه من أدوات الطالب إلا مداده وقلمه، يحسبون من دفع إلى النظر في كثير من تلك الأعمال في هذا الأوان مبتدعاً لا متبعاً، ومتوغلاً في خطة دنية، ليس عاملاً في عمالة سنية، استخرت الله عز وجل أن أجمع ما تأدى إلي علمه من تلك العمالات في كتاب يضم نشرها، ويبين لجاهليها أمرها، فيعترف الجاهل، وينصف المتحامل"[٢].

---

١ حلواني، محمد أمين شاكر، ٢٠٠٣، عالمية الإسلام ورسائل النبي إلى الملوك والأمراء، ط: ١، دمشق، دار القلم، ص: ٧.

٢ الخزاعي، علي بن محمد ١٤١٩ هـ، تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تحقيق: د. إحسان عباس، ط: ٢، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ص: ٢٢.

فالخزاعي ألف كتابه للحث على القيام بهذه العمالات خدمة للدولة الإسلامية ونصرة لها، لأن في النفور منها نفوراً عن التفاني في تقوية مسيرة الدولة الإسلامية، ونرى أنه كان محقاً، خاصة عندما تكون الدولة عادلة مخلصة في خدمة وحراسة دين الله تعالى وشريعة الإسلام. وفي هذا السياق يقول الخزاعي: "وذكرت في كل عمالة منها من ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها من الصحابة ليعلم ذلك من يليها الآن، فيشكر الله عز وجل على أن استعمله في عمل شرعي كان يتولاه صاحب من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وأقامه في ذلك مقامه، ويجتهد في إقامة الحق فيه، بما يوجبه الشرع ويقتضيه، فيكون قد أحيا سنة، وأحرز حسنة"[١].

ثانيا: التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة العلمية:

وهو للإمام العلامة، محمد عَبْد الحَيّ بن عبد الكبير ابن محمد الحسني الإدريسي، المعروف بعبد الحي الكتاني (ت ١٣٨٢هـ)

وأما صاحب التراتيب الإدارية عبد الحي الكتاني، فقد بين غرضه من تأليف كتابه التراتيب الإدارية، وركز فيه على إبراز معالم التمدن الإسلامي والحضارة الإسلامية مشيرا إلى قيام كل ذلك على القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذا له ما يفسره عندما ندرك أن عبد الحي الكتاني عاش في مرحلة الهجوم الكاسح على الحضارة الإسلامية، ثم بروز تيارات فكرية في الغرب أو من يؤيدها في عالمنا الإسلامي تنفي أن يكون لدى الإسلام والمسلمين شيء اسمه فقه الدولة، أو نظام الدولة، فانبرى الشيخ عبد الحي الكتاني لهذه الفرية بالدليل والحجة والبرهان، فبين ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته من التمدن والتحضر في مجال السياسة الحكم والدولة، ولكن فئة من كتاب السيرة النبوية سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين، حينما يكتبون في النظم الإسلامية والتراتيب الإدارية ويبدأون من عصر الدولة الأموية والعباسية مثلاً، ينسبون إليهم التمدن والتقدم في مجال نظام الدولة، وقد تفطن عبد الحي الكتاني إلى هذه الطريقة التي ربما لا يرومون من خلالها التنويه بما بلغته الحضارة الإسلامية في عهد الأمويين والعباسيين من تقدم وازدهار وإبداع، وإنما ليمرروا من خلال ذلك فكرة أن المسلمين ما عرفوا هذا التقدم الكبير إلا لما فتحوا البلدان، أو دخل في حضارتهم أهل الحضارات الأخرى فاستفادوا منهم لا من القرآن الكريم والسنة النبوية، قال الكتاني: "غاية ما ينسبون من التمدن للإسلام؛ يذكرون ما وجد على عهد الدولة العباسية والأموية مثلا، مع ما أوجدته بعد ذلك ممالك العجم والديلم والترك والفرس والبربر وغيرهم، من ملوك الدول الإسلامية بالشرق والغرب، بل وربما كانوا يأتون بنسبة المدنية في الإسلام لبني العباس، ليتسنى لهم بعدُ التصريحُ بأنهم أخذوا ذلك عن اليونان والفرس، لا عن القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم"[٢].

---

١ نفسه، ص: ٢٢.

٢ الكتاني، محمد عَبْد الحَيّ الحسني، (د.ت) التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة العلمية، تحقيق: عبد الله الخالدي، بيروت: دار الأرقم.، ١/ ١٢.

ولهذا فقد كتب الكتاني كتابه الجليل –مستفيد من الخزاعي ومكملاً لما بدأه– من أجل تصحيح المفاهيم، والدفاع عن خصوصية الأمة الإسلامية في مجال النظم والإدارة ويقول في ذلك: "ومن عرف نهضة الإسلام وتعاليم النبي عليه السلام وأمعن النظر في تلك النهضة، تحقق أن ليس هناك من أساليب التمدن ما لم يكن الإسلام في وقت ظهوره أصلا له وينبوعا، فمن تأمل ما بثه النبي صلى الله عليه وسلم من التعاليم، وأنواع الإرشاد، وما حوى القرآن من آداب الاجتماع وسنّ من طرق التعارف والتمازج، وما أودع الله غضون كلماته الجوهرية من أحكام الطبيعة وأسرار الوجود وفرائد الكائنات، وما ضبط من الحقوق وسنّ من أنظمة الحياة وما تلته به السنة النبوية من تهذيب النفوس والأخلاق، والإرشاد للأخذ بالأحسن فالأحسن وأحكمته من سنن الارتقاء والإخاء البشري، والتمتع بضروب الحرية، علم أن التمدن الإسلامي في إبان ظهوره قامت معه تلك الأعمال لتأثير تلك التعاليم على قلوب سامعيها في ذلك الحين، نعم، لا ننكر أن التمدن الإسلامي جرى مجرى النشوء الطبيعي في كل شيء، وسار سيرا تدريجيا إلى أن وصل إلى أوجه في السمو، فمن لم يتأمل ذلك ولم يحط نظرا في الموضوع بما له وعليه، لا بد أن يغيب عن علمه ما بلغته الإدارات، والعمالات والصناعة والتجارة في تلك العشر سنوات، التي قضاها صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة بعد الهجرة النبوية، وأن الترقي والعمران وصل فيها إلى إحداث ما يعرف من الوظائف اليوم في إدارة الكتابة والحساب والقضاء والحرب والصحة ونحو ذلك"[١].

إن عبقرية الكتاني تتجلى في الدفاع عن دولة النبي صلى الله عليه وسلم، وخصوصيتها المتمثلة في الانطلاق التام من الكتاب والسنة، من غير اعتماد على الأمم الأخرى التي كانت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم آيلة إلى الانهيار والسقوط، قال رحمه الله: "أحدق ببصرك وبصيرتك إلى الدور الذي وجد فيه عليه السلام تجد أن الخراب والدمار والظلم كان أثبت في كل جهة من جهات العالم، من الشرق إلى الغرب. فدولة الروم هرمت مع الضعف الذي استولى على ملوكها؛ بمجاوزتهم الحد في الترف، والانهماك في اللذات، والفتن الداخلية والخارجية، والأمة الفارسية سقطت قوتها بسبب حروبها الطويلة مع الروم مع الفتن الأهلية، والشعوب العربية في انحطاط تام وجهل عام. بين هذا الوسط نبعت تلك الشعلة النورية النبوية، فأضاءت دفعة من أول وهلة على العالم، فأحدثت فيه حركة ونهضة بعد العهد بمثلها في جهة من الجهات، أما في جميع أطراف العالم التأمت تلك الشعلة واستفحلت وعرفت كيف تربي رجالاً عظاما لنشر مباديها الحقة والقيام بالعالم من وهدة السقوط فأولئك الذين كانوا أنفسهم قبل الإسلام لا يعرفون من دنياهم إلا البارحة[٢] وتربية الماشية والعيش على أخس بداوة قد انقلبوا بعد الإسلام إلى قواد (...) وسياسيين وعمال أمناء إداريين(...)"[٣].

وقد كان الكتاني يرى أن العلم بالنظم الإسلامية والتراتيب الإدارية إن لم يكن من الفروض العينية فهو من الفروض الكفائية، وذلك لما يورثه هذا العلم من الشعور بالاستقلالية في الهوية الحضارية والعمرانية، ثم الشعور بالعزة والاعتزاز بالإسلام وما يحويه من نظام سياسي

---

١ المرجع السابق، ١/ ١٢.

٢ هكذا في المطبوع، ولعل المصنف قصد ما قاله الزمخشري في أساس البلاغة: "هذه فعلة بارحة، لم تقع على قصد وصواب" أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، دار الفكر، ١٤٠٩ هـ، ١٩٨٩م، ص: ٣٤.

٣ التراتيب الإدارية أو نظام الحكومة النبوية، ١/ ١٣.

وإداري نشأ مع الدعوة الإسلامية، قال في كتاب التراتيب الإدارية: "أرى من الواجبات الكفائية، إن لم نقل العينية على المسلمين العلم بهذه الأمور، لتكون منوالا تنسج عليه الأمة، أو منبها يحرك فيها باعث الجد لاسترجاع ما فات، والتوثق من حفظ استقلالها وصون حياتها مما هو آت، أو ليعلموا على الأقل شرف دين متبوعهم الأعظم عليه السلام، وليزدادوا فيه حبا وله تعظيما، ولما دعاهم إليه تمسكا"[١].

وإن كتابي الخزاعي والكتاني قد أظهرا بعناية فائقة كثيراً من معالم الدولة الإسلامية الفعلية على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، من ذلك: الخلافة والوزارة وما ينضاف إليها – هيئة المهاجرين الأولين – هيئة النقباء الاثني عشر – عمالات وولايات: الحجابة، والسقاية، والكتابة، والترجمة، وتعليم القرآن، وتعليم القراءة والكتابة، وتعليم الفقه، وتعليم الإفتاء، وإمامة الصلاة، والأذان، والسفراء، والشعراء، والخطباء، وأمراء الجند والقتال، وكتاب الجيش، وفارضوا العطاء، والعرفاء ورؤساء الجند، وولاة الأقاليم، والقضاة، وعمال الجباية والخراج، وعمال الزكاة والصدقات، وصاحب المساحة، والخارصون: المقدرون للثمار، وحراس الحمى، وفارضو المواريث، وفارضو النفقات، والمحتسب، وصاحب العسس، ومتولي حراسة المدينة، والعين الجاسوس، والسجان، والمنادي، ومقيم الحدود، وأمراء الجهاد، والمستخلفون على المدينة، ومن يستنفر الناس للقتال، وصاحب السلاح، وصاحب اللواء، وأمراء أقسام الجيش الخمسة، وحراس القائد، والقائمون على متاع السفر، ومن يخذلون الأعداء، ومن يبشرون بالنصر(...) ولا يتسع المجال هنا لذكر كل هذه الولايات التي كانت على عهد دولة النبي محمد صلى الله عليه وسلم"[٢].

وإن تفنن المصنفين في الغرب الإسلامي والأندلس فيما يتعلق بالتراتيب الإدارية ونظام الحكومة النبوية قد جعل القارئ لكتابيهما يطمئن إلى ما ذهب إليه محمد عمارة في قوله: "لقد أقام المسلمون دولة الإسلام إنجازاً عملياً بشريا مدنياً مرجعيته الشريعة الإلهية، فأقاموا بذلك الدين وساسوا به الدولة بل وكل مناحي العمران، فعرفت الإنسانية حضارة أبدعها البشر، لكنها مصطبغة بصبغة الإسلام، فكل عمرانها المدني: من علوم وآداب وفنون– وكل تطبيقات لها– إنها تتغيا تحقيق السعادة الأخروية، بواسطة هذا الإبداع في هذه الحياة، وعلى نفس الدرب، وبذات المنهج استمرت دولة الخلافة الراشدة، بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى يسوسها أولو الأمر بالاجتهاد البشري المحكوم بمرجعية الدين، طاعتهم مشروطة بطاعة الله ورسوله(...)"[٣].

المطلب الثاني: إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين لابن طولون:

هو محمد بن طولون الدمشقي:

---

١ نفسه، ١/ ١٥.

٢ للوقوف على تفاصيل هذه الولايات، ولمعرفة المزيد منها أيضا، ينظر كتاب: التراتيب الإدارية لعبد الحي، وكتاب: تخريج الدلالات السمعية لعلي بن محمد الخزاعي.

٣ عمارة، محمد، الإسلام والسياسة، ٢٠١١م، الرد على شبهات العلمانيين، ط: ١، القاهرة: دار السلام، ص: ٥٠–٥١.

هو محمد بن طولون الدمشقي ولد سنة: ٨٨٠ وتوفي ٩٥٣ هـ، وهو يأتي بين الخزاعي والكتاني رحمهما الله، وكتابه هذا جليل القدر، عظيم الفائدة، وهو يحدثنا عن كتب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وقد قدم الدكتور مازن مبارك لهذا الكتاب بمقدمة يمدح فيها الكاتب فقال: "وأما ابن طولون فكم وفر على الباحثين من وقت وجهد في البحث والتنقيب حين جمع لهم في هذا الكتاب ما تفرق من الرسائل النبوية في بطون كتب السيرة والتاريخ"[١].

وقال مازن مبارك يمدح الكتاب: "وأما كونه كتاب دعوة، فلأن مملي الرسائل صلى الله عليه وسلم سيد الرسل، وإمام الدعاة، صدع بما أمر، ودعا إلى ربه على بصيرة، ودعا بالحكمة والموعظة الحسنة، بعث السفراء برسائله، فكان حكيما في اختيارهم، وخاطب جبابرة الأرض من أكاسرة وقياصرة وملوك وزعماء، فلم يجامل، ولم يضعف، ولم يعنف، وخاطب الناس على قدر عقولهم، فأدى الرسالة، وبلغ الأمانة، ونصح الأمة، وما كان عليه إلا البلاغ صلى الله عليه وسلم"[٢].

والغريب في الأمر أن مازن مبارك وصف كتاب ابن طولون أنه كتاب أدب، وكتاب تاريخ، وكتاب لغة، وكتاب دعوة، إلا أنه لم يصفه بكونه كتاب سياسة ودولة، وذلك لأن كثيرا مما ورد فيه من رسائل هي ذات طابع سياسي محض، ولعل مازن مبارك تعمد هذا خاصة عند قوله في حق النبي صلى الله عليه وسلم: " وما كان عليه إلا البلاغ".

على أن من أجمل سمات كتاب ابن طولون أنه لم يذكر سائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك خارج الجزيرة العربية فقط، بل تناول كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك خارج جزيرة العرب، وإلى أمرائه صلى الله عليه وسلم، وإلى خصومه كمسيلمة الكذاب، وإلى أصحابه كخالد بن الوليد رضي الله عنه وإلى الوفود وغير ذلك.

وقد كان هذا الكتاب من موارد العلامة محمد حميد الله في كتابه مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة.

المطلب الثالث: العلامة محمد حميد الله والمنهج السياسي في كتابة السيرة النبوية:

يعد العلامة الدكتور محمد حميد الله واحدا من أبرز رواد المنهج السياسي في قراءة السيرة النبوية، وله في ذلك كتب كثيرة سنحاول التركيز على أبرزها ومنها:

– **"مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة"** نشرته دار النفائس في طبعات منها الطبعة السادسة، بيروت سنة: ١٤٠٧ هـ.

١ابن طولون، محمد الدمشقي، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م، إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين، تحقيق: محمود الأرناؤوط، راجعه: عبد القادر الأرناؤوط، ط: ٢، بيروت – لبنان: مؤسسة الرسالة، مقدمة المحقق.

٢نفسه.

– **"نبي الإسلام سيرته وآثاره، نشره"** منتدى العلاقات العربية والدولية، قطر، الطبعة الأولى: ٢٠٢٤م.

– **"العلاقات الدولية في الإسلام"** طبع طبعة أولى بمركز نهوض للدراسات والبحوث، بيروت، ٢٠٢٢م.

وغيرها مما لا يتسع المجال لذكرها بالتفصيل

أما "مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة"، فهو كتاب ذكر فيه رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك وعظماء أقوامهم، ويرى أن دراسة هذه الوثائق تعين على الفهم الصحيح لأحداث السيرة في ذلك الوقت، خاصة من الناحية السياسية، فيقول: "ولما كان غير ممكن أن نفهم الحالة السياسية في عصر من العصور إلا بمراجعة الوثائق الرسمية التي تتعلق بذلك العصر– وهي من أجلّ المآخذ للحقائق التاريخية– كان من الضروري أن نجمع الوثائق المتعلقة بالعصر النبوي حتى يتسنى لنا أن نفهمه فهما صحيحا"[١].

وأما كتاب **"نبي الإسلام سيرته وآثاره"**: هو واحد من أجل كتب العلامة محمد حميد الله، وقد كتبه منذ ستة عقود تقريبا باللغة الفرنسية، ثم ترجم إلى الإنجليزية، وكانت المكتبة العربية شديدة التعطش إلى ترجمة عربية لهذا السفر النفيس، إلى أن جاء فضيلة الدكتور عبد الواحد العلمي حفظه الله، فقام بمجهود جليل جبار وترجم الكتاب إلى اللغة العربية، في نحو ثمانمائة وثلاثين (٨٣٠) صفحة، وقدم لقراء العربية تحفة نادرة في دراسة قوية للسيرة النبوية، وهي كذلك دراسة جديدة قائمة أساسا على تصور سياسي محض، ورؤية منهجية قوامها كيف أسس النبي صلى الله عليه وسلم دولة إسلامية في ظل الأوضاع الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت سائدة لإبان حياة النبي صلى الله عليه وسلم، بل وحتى بعد وفاته، قال الدكتور عبد الواحد العلمي: "لم يقتصر المؤلف على دراسة الجوانب الحَدَثية من حياة النبي صلى الله عليه وسلم، لكنه رام بحث آثار ما جاء به النبي من خبر وما قام به من فعل في حياة الأمة وفي جريان التاريخ. فبعدما عرف القارئ بسيرة النبي عن طريق التحقيق في أحداثها واستقصاء أخبارها الصحيحة من مصادرها الأصلية، رام المؤلف رصد ما انبثق عن تعاليم النبي وأفعاله من مؤسسات إدارية وسياسية واقتصادية، أكان ذلك حياته أم بعد رحيله من هذه الحياة الدنيا، إذ ترسخت تلك المؤسسات وظهرت ثمرات أخرى في حياة خلفائه وفي العصور التالية"[٢].

وأما الدكتور محمد حميد الله فيقول في كتابه هذا: "أما تعاليمه فقد شملت مجالات الحياة الإنسانية جميعها: المعتقدات، والممارسات الروحية، والأخلاقية، والاقتصاد، والسياسية. باختصار، كل ما يتعلق بالحياة الفردية أو الجماعية، والروحية أو الزمنية.

١مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص: ٢٣.

٢حميد الله، محمد، ٢٠٢٤م، نبي الإسلام، سيرته وآثاره، ترجمة: عبد الواحد العلمي، ط: ١، قطر: منتدى العلاقات العربية والدولية، ص: ١٠.

زيادة على ذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة في هذه المجالات جميعها. لكل ذلك إذن ينبغي دراسة سيرته وإنجازاته قبل إصدار الحكم عليه"[١].

ولذلك فإن محمد حميد الله –وفقا لتصوره المنهجي للسيرة النبوية_ "لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليحقق الإصلاح المنشود، الدنيوي والروحي على السواء، ولا مصلحة الأمة، لو اقتصر على دور مستشار لحاكم آخر. لهذا فهو يحسب أن من الضروري تأسيس دولة فقط، بل جمع في يده الدعوة الدينية وسلطة الحكم. لم تكن الدولة (أو الملك إن شئنا) هي الغاية، بل الوسيلة إلى الغاية. لم يرث الرسول صلى الله عليه وسلم سلطة أو ملكا، لكن كان أول من أسس دولة في بلاد لم تجتمع من قبل تحت ملك ولا سلطة"[٢].

ولتحقيق هذه النهجية التي اتبعها محمد حميد الله في دراسة السيرة النبوية دراسة سياسية، بين منهجه في ذلك قائلا: "فلندرس أولا الحالة السياسية في مكة قبل ولادة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم نعرض الإصلاحات التي جاء بها الإسلام؟"[٣].

وحتى لا تختلط الصورة لدى بعض القراء قال حميد الله: "باستثناء صفته رسولا لله، وهي مكانة أعلى بكثير من كل ملك أو سلطان، لم يكن للنبي صلى الله عليه سلم بوصفه رئيسا للدولة أي مظاهر للفخامة أو المراسيم الباذخة في بيته. ولم يكن يتميز في شيء من ملبسه أو مسكنه أو طريقة حديثه، وكانوا ينادونه يا رسول الله، يا نبي الله أو يا محمد، أو بكنيته يا أبا القاسم[٤].

وبقي أن نشير إلى الكتاب الثالث لمحمد حميد الله وهو " **العلاقات الدولية في الإسلام**" فبالنظر فيه يبدو أنه مزيج من بعض أحداث السيرة النبوية وما يستنبط منها من أحكام فقهية ذات صبغة قانونية، يمكن تسميتها بالقانون الإسلامي، خاصة في أحوال السلم والحرب أو ما اصطلح عليه بالعلاقات الدولية، وكل ذلك فعله العلامة محمد حميد الله بطريقة عبقرية، وتجربة علمية فذة.

وهذا الكتاب لم يخصصه المصنف للسيرة النبوية فقط، لذلك نجد فيه نماذج محدودة من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بالقانون الإسلامي، أو العلاقات الدولية من منظور الإسلام، ولذلك نجده قد نوع من مصادر هذا القانون فذكر القرآن الكريم والسنة النبوية وأعمال الصحابة، وتصرفات الحكام المسلمين، والإجماع والقياس إضافة إلى بعض أحداث السيرة، وما إلى ذلك.

المطلب الرابع: محمد رواس قلعه جي:

محمد رواس قلعه جي (قلعجي) ولد سنة ١٩٣٤م – وتوفي في ٢٣ أبريل ٢٠١٤م. وهو رحمه الله معدود من الفقهاء إلا أن له اهتماما جليلا بالسيرة النبوية، ومن أهم دراساته في هذا المجال كتابان مهمان هما:

١نفسه، ص: ١٦.

٢ نفسه، ص: ٦٢١.

٣نفسه، نفس الصفحة.

٤نفسه، ص: ٨٠٣.

– **دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من خلال سيرته الشريفة**، الطبعة الأولى، دار النفائس، بيروت. ١٩٨٨م.

– **قراءة سياسية للسيرة النبوية**، الطبعة الأولى، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٦م.

ويهمنا في هذه الورقة الكتاب الثاني الذي خصصه محمد رواس قلعه جي، للجانب السياسي من سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وقد قال في كتاب: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم: "وإني من تجربتي الشخصية معها ما نفضت يدي من كتاب أو بحث أعده في السيرة إلا قفزت إلى ذهني فكرة لبحث آخر جديد، حتى لكأني أشعر بقدرتي على قراءة السيرة النبوية بألف وجه، وكل وجه منها يختلف عن الوجه الآخر"[١].

ولذلك اختار الدكتور قلعه جي الوجه السياسي في قراءة السيرة النبوية "فبعد أن شيد رسول الله صلى الله عليه وسلم المقر الرسمي للدولة الإسلامية، وأصلح الأوضاع الداخلية، واجتمع الناس لرسول الله، وجعلوا القيادة والحكم له، والكل له مطيعون، نستطيع أن نقول: إن الدولة الإسلامية قد قامت بالفعل ولم يبق عليها إلا أن تخطو الخطوة التالية، وهي إعلان قيامها السياسي رسميا".[٢] ويرى رواس قلعه جي أن هذا الإعلان يبدأ من إعلان الصلاة، بل من إعلان الأذان للصلاة، فيقول: "ومع إقراري بهذا كله، ومع اعترافي وإيماني بأن الأذان هو دعوة للصلاة، إلا أنني أسمع بأذن داخلي صوت عقلي يقول: لإن للأذان معنى آخر ومهمة أخرى غير مهمة الدعوة للصلاة، إنه إعلان رسمي صادر عن مقر الدولة الرسمي –المسجد– وبواسطة أداة إعلام رسمية –هي المؤذن الذي عينه رسول الله صلى الله عليه وسلم رئيس الدولة– بقيام دولة الله في الأرض بقيادة محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ... تأمل إن شئت أول كلمة الأذان الله أكبر الله أكبر إنها تعني أن الله تعالى أكبر من أولئك الطغاة، وأكبر من صانعي العقبات وهو الغالب على أمره، أشهد أن لا إله إلا الله فلا سيادة في دولة الإسلام لغير الله، ولا حكم إلا له ...اشهد أن محمدا رسول الله اسلمه الله تعالى القيادة، فليس لأحد أن ينتزعها منه، فهو ماض بها إلى أن يكمل الله دينه، بما ينزله على رسوله من قرآن، وبما يلهمه إياه من سنة"[٣].

المطلب الخامس: اللواء الركن محمود شيت خطاب:

يعد اللواء الركن محمود شيت خطاب من أبرز الكتاب الكبار الذين درسوا سيرة النبي صلى الله عليه وسلم دراسة عسكرية، وهذا منهج فريد يسهم بقوة في تجديد الفهم للسيرة النبوية، فاختار رحمه الله هذا الجانب العسكري مبينا ذلك بقوله: "لقد قرأت أكثر كتب السيرة بإمعان، فوجدت حياة الرسول العسكرية ذات قيمة لتاريخ الحرب لا تعادلها قيمة أخرى لأي قائد قديم أو حديث، غير

١قلعه جي، محمد رواس، ١٩٨٨م، دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من خلال سيرته الشريفة، ط: ١، بيروت: دار النفائس، ص: ٥.

٢قلعه جي، محمد رواس، ١٩٩٦م، قراءة سياسية للسيرة النبوية، ط: ١، بيروت: دار النفائس، ص: ١١٣.

٣قراءة سياسية للسيرة النبوية، ص: ١١٤.

أنها لم تبحث بأسلوب حديث من عسكري مختص بإمكانه معرفة نواحي العظمة الحقيقية فيها، وإظهار تلك النواحي للعيان، فبقيت الناحية العسكرية من حياة الرسول غامضة حتى اليوم"[١].

وقد ترك اللواء الركن رحمه الله في هذا المجال كتبا كثير تدل على تجديده في قراءة السيرة النبوية، في المجال الحربي العسكري، وفي مجال السفارة وغير ذلك من الكتب التي نذكر بعضها كالآتي:

– الرسول القائد، في نحو ثلاثمائة وستسن صفحة بين فيها كل ما يتعلق بمعارك النبي صلى الله عليه وسلم، وشخصيته القيادية فيها، وأخلاق وقيم الحرب في الإسلام وفي عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

– قادة النبي صلى الله عليه وسلم، ذكر فيه القادة الذين اختارهم النبي صلى الله عليه وسلم، ومعايير اختيارهم، وقال في شأن كتابه هذا: "ولكنني في أثناء تأليف هذا الكتاب، وفي أثناء لإعادة قراءته، تمنيت على الله أن يجعل حكام العرب والمسلمين، يجعلون النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام أسوتهم وقدوتهم في الاختيار الرجل المناسب للعمل، المناسب ليس في المجال العسكري فحسب –على أهمية هذا المجال– بل في شتى المجالات الإدارية العلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والزراعية والصناعية، ليقود شعوبهم أفضلُ أبنائها، وليقود هؤلاء الأبناء البررة رجالهم إلى النصر عسكريا، وإلى التفوق بالنجاح في المجالات الأخرى"[٢].

– **سفراء النبي صلى الله عليه وسلم**، وهو كتاب فريد في مجلدين ضخمين، ذكر فيهما سفراء النبي صلى الله عليه وسلم، ومعايير اختيارهم سفراء، لكي يتسنى الاقتداء بهم لمن بعدهم، وهذا هو الهدف الذي كان يتوخاه المؤلف رحمه الله وقد كان متحسرا على المستوى الذي ظهر عليه بعض السفراء الذين عاشرهم، قال في مقدمة كتابه: "كنت أسمع بالعاملين في السفارات العربية في الدول العربية والأجنبية باعتبارهم شخصيات مختارة ثقافة وعلما وخبرة وذكاء، ولكنني لم أكن أعرف واحدا منهم حتى بمجرد الاسم والشكل ... وتيسر لي السفر إلى دولة أجنبية في أوروبا سنة ١٩٥٤م، للدراسة العسكرية، فتحقق لي أمل من آمالي، طالما راود نفسي مرات كثيرة ... وكان لقائي الأول بهم في وليمة شبه رسمية، فتهيبت هذا اللقاء. وأصغيت إلى حوارهم بلهفة وشوق، حتى انقضى وقت اللقاء، فلم أستفد ثقافة ولا علما ولا خبرة ولم ألمس ذكاء، وكان الحوار يدور في ثلاثة محاور: النساء، والسيارات، والطعام، فقلت في نفسي: لعلهم في اللقاء المنتظر يتداركون ما أغفلوه، وتكررت اللقاءات، وتكرر حوارهم المعهود"[٣].

وقد بين رحمه الله الهدف من تأليف هذا الكتاب هو الإصلاح باختيار الرجل المناسب للعمل المناسب فقال: "إن الأمل في اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب، يراود من يحب العرب والمسلمين حقا...وللذين بيدهم القرار في اختيار العاملين في السفارات

١محمود، شيت خطاب، اللواء الركن، ١٩٦٠، الرسول القائد، ط: ٢، دمشق: دار قتيبة، ص: ٥.

٢ نفسه، ص: ٨.

٣ محمود، شيت خطاب، ١٩٩٦، سفراء النبي صلى الله عليه وسلم، ط١، بيروت: مؤسسة الريان، ص: ٨.

العربية والإسلامية بخاصة أقدم سفراء النبي صلى الله عليه سلم، الذين اختارهم قبل خمسة عشر قرنا، لنعرف جميعا أي نوع من الرجال كانوا، وما هي سماتهم التي أهلتهم لتولي هذا المنصب الرفيع.

ذلك هو أحد هدفين رئيسين، كانا الحافزين لي في اختيار موضوع هذا الكتاب، وهو سفراء النبي صلى الله عليه سلم، فالنبي صلى الله عليه سلم هو المعلم الأول لهذه الأمة، ولا يزال وسيبقى ما بقي الإسلام والمسلمون.

أما الهدف الثاني، فهو خدمة السيرة النبوية في ناحية مهمة من نواحيها، قد تسد حاجة وتملأ فراغا في المكتبة العربية الإسلامية، ينبغي ألا يبقى بعد اليوم بإذن الله"[١].

إن في المكتبة الإسلامية عددا كبيرا من المؤلفات التي ركزت على الجانب السياسي من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، تركتها مكتفيا بذكر الأمثلة والنماذج، من ذلك مثلا: منير الغضبان في كتابه: المنهج الحركي للسيرة النبوية، وإن كنا لا نستبعد تأثره بتوجهه الفكري الشخصي في هذا المجال، وكذلك سع الدين العثماني في كتابه: التصرفات النبوية السياسية دراسة أصولية لتصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم بالإمامة، وغيرهم كثير جداً.

المبحث الرابع: بعض القيم المستفادة من الدراسة السياسية لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم:

إن القيم المستفادة من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لا تُستوعب إلا في مجلات عظيمة، وإنما اكتفينا هنا بنماذج قليلة جدً

قيم الحرب: حقوق الإنسان حياً وميتاً:

تتعدد في المجال السياسي حقوق الإنسان ما بين قتيل في معركة، أو أسير في حرب، أو رسول للتفاوض، وإننا في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم السياسية نلمس هذه القيمة العظمى، ففي قتيل المعركة يقول محمد حميد الله: "إن التمثيل بموتى العدو محظور بشدة بموجب القانون الإسلامي، والواجب على الدام احترام الموتى، لذلك كان النبي ينهض واقفا عندما كانت تمر بع جنازة ولو كانت لشخص غير مسلم في طريقه للدفن...وإذا طلب العدو تسليم جثمان قتيل من جانبهم، فيجب عدم رفض هذا الطلب، وهو الأمر الذي فعله النبي، حتى إنه رفض قبول المال الذي عرضه العدو نظير تسليم الجثمان في معركة الخندق"[٢].

وأما أسير الحرب، فقد قال حمد الله: "ولا يجوز حسب القانون الإسلامي قتل الأسير بكون أسيرا، ويروي ابن رشد إجماع الصحابة على ذلك..."[٣].

١سفراء النبي صلى الله عليه وسلم، ١ : ١١.

٢ حميد الله، محمد، ٢٠٢٢م، العلاقات الدولية في الإسلام، لمحمد حميد الله، ط: ١، بيروت: مركز نهوض للدراسات والبحوث، ص: ٣٣٥.

٣نفسه، ص: ٢٧٨.

قيم السفارة والسفراء والقادة: نحو بناء الإنسان:

لقد عمل النبي صلى الله عليه وسلم من خلال كونه قائدا عظيما على بناء إنسان الدولة والحضارة المفعم بالقيم العليا، قال محمود شيت خطاب: "وقد استطاع النبي صلى الله عليه وسلم بناء الإنسان المسلم على ثلاث دعائم: العقيدة الراسخة، والقدوة الحسنة، واختيار الرجل لمناسب للعمل المناسب"[١].

استخلص محمود شيت خطاب عددا من القيم من خلال دراسته للسفراء الذين أعدهم النبي صلى الله عليه وسلم ورباهم، فذكر منها:

الإسلام والانتماء إليه:

قال شيت خطاب: "والذي أردتُ أن أنص عليه هو أنّ من أول سيمات السفير المسلم، هو الإيمان العميق بالإسلام، والولاء المطلق، له والانتماء إليه وحده لا إلى غيره، لكيلا يتردى السفير في مزالق الانحراف، لأنه بعيد عن العيون، يتعرّض للإغراء المادي والمعنوي، فيعف عن المغريات والانحراف في جميع الظروف والأحوال"[٢].

العلم:

قال شيت خطاب: "لقد كان سفراء النبي صلى الله عليه وسلم من أبرز علماء الصحابة، وكانوا من العلماء العاملين المخلصين فيعملهم لذلك أينعت جهودهم وأثمرت أطيب الثمرات"[٣].

حسن الخلق:

قال شيت خطاب: "والسفير الصادق يظهر أثر صدقه في وجهه وصوته، ولا شك في أن ظهور أثر الصدق في وجه السفير وصوته، يؤثر في المخاطب ويحمله على قبول قوله واحترامه"[٤].

الصبر:

قال شيت خطاب: "لقد كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قمة في الصبر الجميل، فقد نجحوا نجاحاً باهراً في اجتياز الصعوبات والنوائب والمصائب التي لاقتهم في حياتهم العملية بعد إسلامهم إذ كانت مقاومة المشركين للإسلام والمسلمين عنيفة جداً

١قادة النبي صلى الله عليه وسلم، ص: ٥٨٠.

٢سفراء النبي صلى الله عيه وسلم، ص: ٢٥٢.

٣ سفراء النبي صلى الله عليه وسلم، ص: ٢٦٣.

٤ نفسه، ص: ٢٧٨.

وكان سفراء النبي صلى الله عليه وسلم هم صفوة الصابرين المحتسبين من الصحابة لذلك صبروا على ما أصابهم في سفاراتهم صبراً جميلاً وأقبلوا على مهماتهم إقبالاً كاملاً"[١].

الشجاعة:

قال شيت خطاب: "ليست الشجاعة ضرورية للمجاهدين فحسب، بل هي ضرورية للإنسان في السلام كما هي ضرورية له في الجهاد. وكما يُحتمل أن يفقد الذي لا يتحلّى بالشجاعة حياته في ميدان القتال، كذلك يُحتمل أن يفقد الذي لا يتحلى بالشجاعة حقوقه في ميدان الحياة"[٢].

إن الحديث عن شجاعة سفراء النبي صلى الله عليه وسلم مما لا يخفى على دارس سيرتهم، وكيف لا يكونون شجعاناً في المواقف والتصرفات والكلام والحوار والتفاوض وهم الذين تربوا في أحضان النبوة على يد أعظم مرب ومعلم، وهو النبي محمد صلى الله عليه وسلم، سيد الشجعان، فظهر أثر تربيته في إقدامهم، واقتحامهم للعقبات والصعاب، وبذلك يكونون نموذجاً رائعاً لرجال الدلة النبوية في مختلف المجالات.

الحكمة:

قال شيت خطاب: "وقد تميز سفراء النبي صلى الله عليه وسلم بالحكمة، فلا بد أن يكون السفير مقنعاً، حسن التصرف، متزناً، غير متهوّر، عاقلاً، ذكياً، حاضر البديهة، قوي الحجة، سليم المنطق، هادئ الطبع مجرباً، إلى غير تلك المزايا التي تجعل من السفير حكيماً في تصرفه، ينطق بالحكمة، ويدعو إلى الحكمة "[٣].

وقد تجلت حكمة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أمام ملك الحبشة، أثناء مناقشة عمرو ابن العاص، فكان كله شجاعة وحكمة وروية وذكاء، وقد ظهر أثر ذلك في حماية من كان معه من أصحابه الذين هاجروا معه إلى الحبشة، كما أنه استطاع استمالة الملك إلى جنبه بعدما كان عمرو بن العاص يرغب في استعادتهم إلى مشركي قريش بمكة، كما تذكر كتب السيرة حقا"[٤].

خاتمة:

لم تكن سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم مجرد سرد تاريخي، كما لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام نبي دعوة بمفهوم محدود كما عند بعض الكتاب، وإنما كان رسول الله صلى الله عليه سلم كما فهمه معظم المسلمين، رسولا ونبيا، وداعياً إلى الله، ومؤسسا

١نفسه، ص: ٢٨٧.

٢تنظر التفاصيل في: سفراء النبي، ٢: ٢٩٥ – ٢٩٦.

٣نفسه، ص: ٣٠١.

٤سفراء النبي، ٢: ٢٩٥ – ٢٩٦.

لدولة مسيراً لها، وبانيا للحضارة والقيم العظيمة، كل ذلك ضمن شمولية دعوته الخالدة، ورسالته الصالحة لكل زمان ومكان، الشاملة لكل مجالات الحياة، وقد كانت سيرته العطرة تطبيقاً عملياً للقرآن كما أمر الله تعالى، وكانت سيرته كذلك الوجه الناصع لدعوته وشريعته، وما على الأجيال من أمته إلا الاقتداء به صلى الله عليه وسلم في كل مجالات الحياة، ومنها المجال السياسي والإداري الذي أنجزنا فيه هذا البحث.

نتائج البحث:

وقد توصلنا من خلال هذا البحث إلى عدد من النتائج أهمها:

– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع في رسالته بين الدعوة والسياسة.

– لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم منظرا في السياسة بل كان ممارسا لها من خلال اتخاذ كل التدابير الممكنة وقتئذ لتسيير الدولة الإسلامية الناشئة.

– تفطن العلماء منذ القديم إلى الجانب السياسي من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، فجمعوا رسائله إلى الملوك ودونوها في كتبهم.

– مع مرور الزمن ظهر نمط جديد من التأليف في السيرة النبوية، وهو المزيد من دراسة وتحليل المواقف السياسية للنبي صلى الله عليه وسلم، لأجل الاقتداء به في هذا المجال.

التوصيات:

وبعد هذه النتائج نخلص إلى بعض التوصيات أهمها:

– ضرورة التجديد الدائم في دراسة السيرة النبوية من أجل جعل هذه السيرة مواكبة للعصر مواكبة جادة كما كانت في العصور الزاهرة لهذه الأمة.

– ضرورة تطوير الدراسة السياسية للسيرة النبوية لأجل الرد على منتقصيها الذين لا يرون في السيرة النبوية إلى جانب الدعوة والهداية الروحية.

– ضرورة الاستفادة من كبار العلماء الذين ألفوا في السياسة النبوية كمحمد حميد الله، وغيره من الأئمة الراسخين في العلم، لأجل السير على منوالهم في دراسة السيرة النبوية.

المصادر والمراجع:

– ابن طولون، محمد الدمشقي، إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين، تحقيق: محمود الأرناؤوط، راجعه: عبد القادر الأرناؤوط، ط: ٢، بيروت — لبنان: مؤسسة الرسالة١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

– الأعظمي، محمد مصطفى، كتاب النبي صلى الله عليه وسلم، ط: ٢، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٧٨.

– حسين، الحاج حسن، النظم الإسلامية، ط: ٢، القاهرة: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٧.

– حلواني، محمد أمين شاكر، عالمية الإسلام ورسائل النبي إلى الملوك والأمراء، ط: ١، دمشق، دار القلم، ٢٠٠٣.

– حميد الله، محمد، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة دار النفائس، بيروت: الطبعة السادسة، ١٤٠٧هـ.

– حميد الله، محمد، نبي الإسلام، سيرته وآثاره، ترجمة: عبد الواحد العلمي، ط: ١، قطر: منتدى العلاقات العربية والدولية،٢٠٢٤م.

– الحميدي، صالح بن خالد، نشوء الفكر السياسي الإسلامي من خلال صحيفة المدينة، ط: ١، بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٩٤.

– الخادمي، نور الدين بن مختار، المقاصد الشرعية في المجال السياسي والدستوري، ط: ١، القاهرة: دار السلام، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.

– الخزاعي، علي بن محمد تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تحقيق: د. إحسان عباس، ط: ٢، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤١٩ هـ.

– الزمخشري، جار الله أساس البلاغة، بيروت: دار الفكر، ١٩٨٩م.

– عمارة، محمد، الإسلام والسياسة، ٢٠١١م، الرد على شبهات العلمانيين، ط: ١، القاهرة: دار السلام.

– قلعه جي، محمد رواس، دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من خلال سيرته الشريفة، ط: ١، بيروت: دار النفائس، ١٩٨٨م.

– قلعه جي، محمد رواس، ١٩٩٦م، قراءة سياسية للسيرة النبوية، ط: ١، بيروت: دار النفائس.

– الكتاني، محمد عَبْد الحَيّ الحسني، (د.ت) التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة العلمية، تحقيق: عبد الله الخالدي، بيروت: دار الأرقم.

– محمود، شيت خطاب، اللواء الركن، الرسول القائد، ط: ٢، دمشق: دار قتيبة، ١٩٦٠.

– محمود، شيت خطاب، سفراء النبي صلى الله عليه وسلم، ط: ١، بيروت: مؤسسة الريان، ١٩٩٦.